الأدب الكبير

العقل بين منزلتين

الصداقة والصديق
مع الحبّ في بحرٍ واحد

تُلقي هذه الزاوية الضوء على كُتب وأسماء أساسية من التراث العربي والإسلامي، انشغلت بالإنساني والكونيّ، ما يجعلها راهنة في أيّامنا هذه، رغم مضيّ قرون على ظهورها. هنا عودة إلى كتاب «الصداقة والصديق» للتوحيدي، وإلى قوله بقرابة الصداقة والحبّ

سهام بوهلال

من بين الأسئلة التي يطرحها أبو حيان التوحيدي (القرن الرابع الهجري) في كتابه «الصداقة والصديق»، سؤال متفرّد ما زال يُغني المحادثات والمُنافقات، ويفرض نفسه حتى داخل العلاقات الزوجية أو الحميميّة. في حواره مع الفيلسوف الفارسي الأصل، البغدادي النشأة، أبي سليمان المنطقي، أو محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني، يسائله التوحيدي عن الفرق بين الصداقة والعلاقة، فيجيبه المنطقي الشهير بالتالي: «الصداقة اذْهَبْ في مسالك العقل، واذْخُل في باب المُروءة، وابْعدْ من نوازي الشهوة، وائْرِه من آثار الطبيعة، وأشبه بذوي الكهولة، وارمِ إلى حدود الزشاد، واحْدُ بأسباب الشداد، وابعد عن عوارض الغرارة والحداثة. فإنّ العلاقة فهي من قِبَل العِشق والمحبّة والكلف، والشَّغف والتتيّم والتهيّم والهوى والصَّبابة، والتَّدانف والتَّشاجي. وهذه كلّها أمراضٌ أو كالأمراض، بشركة النفس الضّعيفة والطبيعة القويّة. وليس للعقل فيها ظِلّ ولا شَخْص، ولهذا تُسرع هذه الأعراض إلى الشّباب من الذّكران والإناث وتنال منهم وتملكهم، وتحُول بينهم وبين أنوار العقول، وإداء النفوس وفضائل الأخلاق وفوائد التّجربة، ولهذا وأشباهه يحتاجون إلى الزّواجر والمواعظ، ليفيؤوا إلى ما فقدوه من اعتدال المِزاج والطّريق الوسط».

مسألة العقل هي إذاً في صميم الطّرح بين الصداقة والعلاقة، على أنّ أبا سليمان قد وضع في أوّل الكتاب وفي ردّه على سؤال التوحيدي (من هو الصّديق؟) أنّ «صديقي وصديقكم هو العقل». كما أنّ «غياب العقل» يقع في صميم الحبّ ومن موجباته، كما يقول ابن عربي (توفيّ عام 638 من الهجرة) في «الفتوحات المكيّة»: «لا خير في حُبّ يُدبِّر بعقل»، أو كما يظهر في حالات الحبّ الموصوفة دائماً بالفاظ تنمّ عن الجنون وذهاب العقل، وفُقدان الإرادة، وشمولية سيطرة العشق على كلّ أطراف الذهن والجسد. وهذه الألفاظ عِدّتها ستون، أدرج منها ابن الجوزي (توفيّ سنة 597 للهجرة) في كتابه «ذمّ الهوى» خمسين، والعشر الباقيات موجودة في كتب أخرى، كـ«المصون في سرّ الهوى المكنون» للخُصري القيرواني (488 للهجرة).

ويبدو أيضاً من جواب أبي سليمان المنطقي، أنّ الشّهوانية التي تسِم العلاقة، ولو في مفهومها العُذري. لأنّه يكفي أن تسيطر شهوة اللّذة بالمحبوب على الذّهن من دون أن يخضع الجسد، لتغييب العقل، والابتعاد عن الاعتدال والتوازن، أو ما أسماه السّجستاني بـ«الوسط»، هي خطّ أحمر بين الصداقة والعلاقة. ولهذا ربّما ما زلنا إلى يومنا هذا نتساءل عن إمكانية الصداقة بين رجل وامرأة، أو استحالتها. وهذا موضوعٌ آخر.

وعلى مستوى آخر، يكمُن الفرق في انعدام الصّديق أو نُقصانه الحتمي، مع تواجد العشيق ووفرة العلاقات، بدليل التّراكم الهائل لقصص العشّاق والمُحبّين، والمؤلّفات في الموضوع، وبمقتضى الطبيعة البشرية وميولها ببساطة، «قيل لأعرابي: لكَ صديقٌ؟ قال: أمّا صديق فلا، ولكنْ نِصفُ صديق. قيل: فكيف انتفاعك به؟ قال: انتفاع الغُربان بالذّوب البالي». و«قيل لفيلسوف: مَن أطول النّاس سفراً؟ قال: مَن سافرَ في طلب صديق». «وقد سئل رَوْح بن زِنباع الجذامي (84 هجرية) عن الصّديق فأجاب: «لفظٌ بلا معنى، أي أنّه لعزّته كأنّه ليس بموجود».

وإذا اقتربنا من اللّفظ بعينه، فالصّديق «أخذ من الصّدق الذي هو خلاف الكذب، ومن الصّلابة لأنّه يُقال: رُمح صِدْق، أي صُلب. وهذه صفات من الأخلاق العالية».

أمّا العلاقة، فهي أساساً من «العلق» ممّا يعلق بقلبك وذاتك، أو من «العَلَقة» في الرّحم، وهذا من قِبل الطبيعة، وليس الأخلاق.

ورغم هذه الفروق، عندما تقرأ كتاب «الصداقة والصديق» أو فصولاً عن الصداقة في كتب أخرى، كـ«كتاب الموشّى» للوشّاء (القرن الثالث الهجري)، تجد تجانساً بارزاً بين أوصاف الصّداقة وأوصاف العلاقة، وتشابهاً في شروط الصّديق، وأوصاف المحبّ، لأنّ كلا المفهومين يغوص في بحر واحد، ويرشف من العين نفسها، كما يقول روح بن زِنباع في نفس كتاب التوحيدي: «ولو جُهل معنى الصّديق، لجُهل معنى الصّاحب، ولو جهل معنى الصاحب، لجهل معنى الخليل، وعلى هذا الحبيب، والرّفيق، والوديد... وهذا كلّه على باج واحد، وإنّما تختلف بالمرتبة في الأخصّ والأعمّ، والألطف والأكثف، بالأقرب والأبعد والأخلص والأريب».

أو كما في شرح ممتع لأبي سليمان المنطقي لمقولة أرسطوطاليس: «الصديق إنسانٌ هو أنتَ إلّا أنّه بالشخص غيرُك»: «إنّما أشار بكلمته هذه إلى آخر درجات الموافقة التي يتصادق المتصادقان بها... وأوّل هذه الموافقة توحُّدُ، وآخرها وحدة، وكما أنّ الإنسان واحدٌ بما هو إنسان، كذلك يصير بصديقه واحدٌ بما هو صديق، لأنّ الصداقتين تصيران عادةً واحدة، والإرادتين تتحوّلان إرادةً واحدة». ويختم المنطقي تعليقه بالبيت الشهير الذي تجده في سرير المُحبّ، وخلوة الزّاهد وتصادفه تاجاً على جبين الصديق: «روحُهُ روحي، وروحي روحُهُ / إن يشأ شُقّتْ وإن شُقّتْ يشا».

(شاعرة وروائية مغربية مقيمة في باريس)

في كتاب التوحيدي تجانسٌ بارز بين أوصاف الصداقة والعلاقة

يقول السجستاني مجيباً التوحيدي: صديقي وصديقكم هو العقل

من منمنمة ترد في نسخة من «كتاب الملوك» للفردوسي، تعود إلى القرن الثاني عشر (Getty)

حضورٌ مستمرّ

يُعدّ أبو حيّان التوحيدي من أكثر أسماء التراث حضوراً في الثقافة العربية اليوم، إذ يُعاد بشكل ملحوظ إصدار أعماله في العديد من دور النشر، ما يُحيل إلى طلب عليها. ما سبب هذا الاهتمام المعاصر؟ يمكن العثور على إجابة أوّلية عن هذا السؤال في أسلوب التوحيدي نفسه، وهو أسلوب سلسٌ يُمزج بين الفكر والأدب، مخفّفاً صعوبة الفلسفة برشاقة السرد. سببٌ يجد معناه في لقب التوحيدي: فيلسوف الادباء وأديب الفلاسفة.

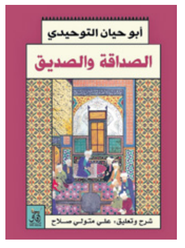

تصويب

لا اهتمامَ لمَن تنادي

محمد الأسعد

أسفتْ جامعة «لايدن» الهولندية، ذات يوم، أنّ مئات المخطوطات العربية النادرة التي بحوزتها معرّضةٌ للضياع، والحفاظ عليها يحتاج إلى إمكانات وأموال تفتقر إليها. من بعض ما ذُكرت من مخطوطات عربية مهدّدة، كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم، وكتب في الرياضيات والفلك والطب والفلسفة... أي كلّ ما يُعَدّ تراثاً على جانب كبير من الأهمية التاريخية والعلمية. وأظهرت الصور التي أرفقتها الجامعة بإعلان أسفها، مخطوطات تآكلت أوراقها وأبلاها التداول، وطلبت تعاون مؤسّسات عربية للحفاظ على المخطوطات النادرة. ومرّت الأيام من دون أن يتقدّم أحد لإنقاذ هذه الذخائر الثمينة. أتذكّر أنني نشرتُ أنذاك رسالة مفتوحة إلى الجامعة، أجد من المفيد التذكير بها الآن. قلتُ فيها: «أيّها السادة، إذا كنتم تعتقدون أنّ أصحاب هذه المخطوطات ما زالوا يعيشون في أرجاء هذا الوطن الممتدّ بين الماء والماء، أو أنّهم أحياء، على الأقلّ في ذاكرة أحفادهم المعاصرين، فأنتم واهمون. والأفضل أن تبحثوا عن طرق للاتصال بالمعنيين حقّاً بأمر مخطوطاتهم المتآكلة، أعني ابن حزم والخوارزمي وأبا بكر الرازي مثلاً. وإيقاظهم طلباً لمعونتهم. وإلّا سيظلّ طلبكم معونة الأحفاد أشبه بالطلب من كنغر أسترالي أن يهرع ليساعد في ترميم لوحات ميكل أنجلو في الفاتيكان، أو مناشدة قيوط أميركي مدّ يد العون للحفاظ على آثار القدس المعرّضة للهدم والتدمير». وأسأل الآن: هل ثمّة ما يصوّب خطأً ارتكبتُه في لحظة من لحظات مخيّلتي الضالّة؟

(شاعر وروائي وناقد من فلسطين)

وقفة مع

غسّان عبد الخالق

تقف هذه الزاوية مع مبدع عربي في أسئلة سريعة حول انشغالاته الإبداعية وجديد إنتاجه وبعض ما يودّ مشاطرته مع قرّائه

عمّان ـ العربي الجديد

■ ما الذي يشغلك هذه الأيام؟

يشغلني التفكير هذه الأيام، بما آلت إليه السيكولوجية البشرية، في خضمّ هذا الصراع المرير مع وحش كورونا. وأحسب أنّ الناس سيكونون بحاجة ماسة لإعادة تأهيل نفسي وسلوكي إذا عادت الحياة إلى مجاريها. وكأنّ الناس اعتادوا الشعور بالذنب جزّاء أي اتصال أو تواصل وجاهي؛ فتراهم يتفقدون أنفسهم ويؤنّبونها إذا تساهلوا في المصافحة مثلاً، أو إذا غفلوا عن إحكام وضع الكمامة على وجوههم، أو إذا لمسوا سطحاً ولم يعقّموا أيديهم.

الكلّ يريد أن ينتهي ممّا هو فيه ويعود إلى منزله بأسرع وقت ممكن. صارت علاقة الناس بالمنازل ملتبسة جدّاً؛ فهي ملاذهم الذي يفيئون إليه من جهة، وهي زنازينهم التي يتمنّون الانعتاق منها من جهة أخرى. صار الناس يعيشون حياتهم يوماً بيوم، على وقع خيبات الأمل السياسية والانهيارات الاقتصادية وماسي الفقد الشخصية وتصاعد مظاهر العنف الاجتماعي.

■ ما آخر عمل صدر لك، وما عملك القادم؟

في المطبعة الآن كتابي النقدي الأحدث «الراوي مفكّراً: دراسات تطبيقية في السرد العربي المُقَفّى». وقد لازمتني الفكرة الناظمة له سنوات عديدة. ففي ظلّ تصاعد الشكوى سابقاً من السرد الروائي الوظيفي المسوّق بالتعبير المباشر والمبتذل عن الهموم الأيديولوجية والسياسية والاجتماعية، لا ريب في أنّ الخطاب الروائي العربي قد وقع ضحية هذا الفهم الميكانيكي للواقعية، لم يقلّ ردّ الفعل المعاكس سوءاً؛ إذ غرقت الرواية العربية في التفكيك المفتعل وفائض اللغة والتجريب المجّاني والشكلانية السطحية. وقد اليت على نفسي، في هذا الكتاب، العمل على إعادة التعريف بالمعنى الحقيقي للواقعية المنشودة والتأشير على انكساراتها بخصوص التطبيق، فضلاً عن إعادة الاعتبار للسرد المُثقّف المفكّر دون مبالغة أو تصنّع. واخترت لتجسيد هذا الضرب من السرد، نصوصاً قديمة وحديثة ومعاصرة، ذكورية وأنثوية، بقصد تسليط الضوء على أكبر قدر من النماذج السردية الممثّلة لما أريد أن أقول. عملي القادم في مرحلة التنقيح والمراجعة الآن، وهو روايتي/ رحلتي التاريخية الثالثة، حيث بذلت جهداً كبيراً لتقمّص شخصية فيلسوف ومتصوّف وشاعر بغدادي في القرن الخامس الهجري، ولم ادّخر وسعاً لتوظيف سيرته الذاتية فنياً وموضوعياً، بحيث أستوفي ما استطعت شرط التعميق الجمالي لتجربته وشرط الانطلاق من هذه التجربة لتشخيص واقعه التاريخي الذي يكاد ينطبق من وجوه كثيرة على واقع المجتمعات العربية المعاصرة.

تصاعُد النزوع لرقمنة الواقع سيزيد من اغتراب الإنسان

■ هل أنت راضٍ عن إنتاجك ولماذا؟

بعيداً عن مجاملات الزملاء والأصدقاء والصحافيّين والمتابعين في وسائل التواصل الاجتماعي، وفي ضوء ما يصلني من ردود أفعال من القرّاء الحقيقيّين الذين لا تربطني بهم أيّة صلة، فضلاً عن ردود أفعال الناشرين لأعمالي، فأنا راضٍ إلى حدّ بعيد، خصوصاً أنّني اكتبُ وأنشر لأُسعد قرّائي وأُسعد نفسي، بعيداً عن أي مطمع مادي كالرغبة في الحصول على هذه الجائزة أو تلك. لكن الكاتب ومهما بلغت درجة رضاه عمّا يكتب، يظلّ أسير حال القلق والتحفّز، وهو الحال الذي يتكفّل عادة بدفعه إلى مزيد من الإنجاز.

■ لو قُيّض لك البدء من جديد، أيّ مسار كنت ستختار؟

لو قيّض لي البدء من جديد، سأختار مساراً مشابهاً أو قريباً جداً من مساري الحالي؛ إذ طالما حلمت بأن أكون كاتب مقال أسبوعي منتظم، إلى جانب أن أتفرّغ لإصدار ما يمكن من كتب. لكنّ تكاليف الحياة وتصاريفها في الواقع العربي، تُلزم الكاتب بأن يكون أكثر واقعيةً وأقل رومانسية، حتى يفي بالتزاماته المادية؛ الشخصية والعائلية والاجتماعية.

■ ما التغيير الذي تنتظره أو تريده في العالم؟

من المؤكّد أن العالم يستعد لعبور دورة جديدة على كل الصّعد، وأحسب أن ثمّة مستجدّين متعاكسين بدأ يفرضان نفسيهما عالمياً. أمّا الأول فيتمثّل في تصاعد النزوع لرقمنة الواقع وتوجيهه عبر الأزرار والشاشات الذكية، ما سيزيد من حال اغتراب الإنسان عن نفسه وعن غيره، كما سيزيد مستويات السيطرة والتحكّم في المجتمعات من جانب مراكز المال والمعلومات. وأمّا المستجد الثاني المعاكس فيتمثل في تصاعد النزعة الإنسانية العابرة للأديان والقوميات والأيديولوجيات والحدود. ثمّة حالة من التّنبّه الملموس لما يحدث من مآسٍ في أماكن متباعدة، خصوصاً لما يحدث في فلسطين المحتلة. وفي تقديري أنّ هناك ما يشبه التحالف العابر للقارات والجنسيات بين الآف من شباب العالم، الذين صاروا يقفون بالمرصاد لأيّ انتهاك أو تجاوز على امتداد الكرة الأرضية، ويفيدون إلى أبعد الحدود من وسائل التواصل بوجه خاص، في التوعية السياسية وحشد الأنصار والتأثير في مجريات الأحداث.

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

غسّان عبد الخالق

بطاقة

كاتبٌ وناقد من مواليد الزرقاء، الأردنية عام 1962. حائز دكتوراه في النقد. من أعماله النقدية: «مفهوم الأدب في الخطاب الخلدوني» (1994). و«الأخلاق في النقد العربي: من القرن الثالث حتى القرن السادس» (1999). و«الذات والموضوع: دراسات تطبيقية في أدب السيرة العربية» (2019). صدرت له أيضاً مجموعتان قصصيتان هما «نقوش البياض» (1992). و«ليالي شهريار» (1994). ورواية قصيرة بعنوان «ما تيسّر من سيرته» (2010). وسيرة ذاتية في مجلّدين: «بعض ما أذكر» (2016). و«بعض ما نسيته» (2020).

شعر

إلى الحبّ الأوّل لا قدرةَ لي على العودة

جرحٌ قديمٌ في السّماء

عباس حسين

1

خرجْتُ إليكِ مذعورةً مِن بابِ غرفتكِ المُظلمة
روحكِ ما زالت تصرخ
تضغطُ بقوّةٍ على معصمِ يدكِ الذي بدأ يزرقُّ
دمعكِ اختلط بالدمِ النّازفِ من الضمادة
تدركينَ
أنّ الضّغط لن يجدي نفعاً في مثلِ هذه الحالة
لكنّها طبيعتكِ الحنونة.
...
لطالما ضغطتِ على نفسكِ
أنتِ كم ضغطتِ على نفسكِ يا صديقتي؟
...
تعاودينَ النظر في المرآة
تتذكّرين عينيه الخارقتين
وبصماتِ تحرّكينَ جسدَكِ الذي بدأ بالتخشُّب
...
وصلتِ إلى النقطة التي لا رجعةَ فيها
لا تندمي
عليكِ تقبّلُ الأمر
بعدَ قليلٍ سيصبحُ جسدُكِ خشبةً مقوّاة
وستفكّرينَ بإزالةِ الضّمادةِ عن شرايينِ معصمكِ المقطوعة
...
كلاكُما الآن يمرُّ بوقتٍ عصيب
ويأملُ سماعَ صوتٍ ما يُنقذُهُ
كلاكُما اختارَ
أنتِ انجرحتِ عنْ قَناعة
وسيعيشُ حبيبُكِ من دونها
مَعَ
امرأةٍ
غريبة.

2

ثمّةَ
جُرحٌ قديمٌ في السّماء
الشّمسُ
ضمادةٌ عليه.

3

حافظوا على ماءِ الوجهِ
مهما كلّفَكُم ذلكَ
لأنّكم
بعدَ الموتِ
حينَ تعطشونَ داخلَ قبورِكُم
سَتشربونَ مِنه.

4

لستُ مثلَ همّتكَ يا عيسى
بعدَ كلّ هذا الغياب
يقولونَ إنّكَ ستعودُ مِن جَديد!
وأنا
إلى الحبِّ الأوّل
لا قدرةَ لي على العودة.

5

في اللّيلِ
حينَ تهدأ وتغطُّ في نومكَ الحَزين
ستحتاجُ إلى شخصٍ يأتيكَ إلى القَبر
يُعطّي قدميكَ اللتينِ ستخرُجانِ من الكَفن
مثلَما كانتْ أمّكَ
تفعلُ ذلك.
تستيقظُ مرعوباً
تمدُّ يدكَ اليُمنى لجلبِ هاتفكَ
تريدُ البحثَ في الإنترنت
عن معنى الكابوسِ الذي أزعجكَ طيلةَ اللّيل.
وعندما تفشلُ كعادتك
تتذكّرُ
أنّ عليكَ الذّهابَ إلى شخصٍ ما
لتخبرهُ عن الكابوس.
يضعُكَ في حجرِه
يَهمسُ في أذنكَ المُضطربة: «اسم الله عليك ماما».
تهدأ
ثمّ تفتحُ قبضتكَ على مَهلٍ
وبدلَ الهاتفِ هذه المرّة
رويداً رويداً تَسقطُ ذراتُ الرّمل مِنها.
تقولُ في نفسك
وأنتَ تمنعُ بحافتي جفنيكَ بعضَ الدُّموع
لا يُمكنُ لكابوسٍ ما أنْ يقتُلَني
ربّما شَعرتُ بالبَرد
وربّما
أمّي
لم تأتِ إلى غُرفتي اللّيلةَ الماضية.

(شاعر من العراق)

النص الكامل
على الموقع الالكتروني

عمل لـ لدير إسماعيل (سورية)

فعاليات

ينظّم «المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات» في الدوحة، عند السادسة من مساء الخميس المقبل، محاضرة افتراضية تقدّمها الباحثة **ليندسي ستيفنسون**، تحت عنوان **من جيران إلى أجانب: الإيرانيون في البحرين في أوائل القرن العشرين**. يدير الحوار الأكاديمي الإيراني، **مهران كامرافا**، مع توفّر ترجمة عربية.

يُفتتح، عند الخامسة من مساء الخميس المقبل، في «غاليري بيكاسو» بالقاهرة، معرض **امواج** للتشكيلي الاردني **خالد الحمزة** (1955)، ويتواصل حتى منتصف الشهر المقبل. الحمزة يحمل دكتوراه في تاريخ الفن والعمارة الإسلامية، واقام أوّل معارضه عام 1980، ولديه مؤلّفات عدّة؛ مثل: «مقعد في المدينة شبه الفاضلة»، و«هذا هو الفن»، و«التراث التشكيلي الشعبي في الاردن».

تعرض «المكتبة العامّة» لبلدية بيروت، عند الثامنة من مساء اليوم الإثنين، فيلم **نصر** من إخراج **انطوان واكد** و**بديع مسعد**. يتناول العمل سيرة المخرج السينمائي اللبناني **جورج نصر** (1927 - 2019/ الصورة) الذي بدا مشواره بفيلم «إلى اين؟» (1956)، ووثّق لحياة المغتربين اللبنانيّين في المهجر.

في اليوم التاسع من «مهرجان رام الله للرقص المعاصر»، يعرض في بثّ مباشر من برلين في المسرح البلدي برام الله، بدءاً من الثامنة من مساء الخميس المقبل، العرض الراقص **Isson** (الشيء نفسه باليونانية) للراقصَين **اليسّيو سكاندالي** و**ليوناردو دي اكوينو** (الصورة) من فرقة **سي تولا ليمنايوس** الالمانية.